

مجلَّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 4 (2009) : 200 - 209
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التكامل في مناهج البحث العلمي المبررات والمحاذير
– النقد الأدبي أنموذجا –

د/ بوعلام بوعامر قسم الأدب العربي المركز الجامعي ــ غرداية

حظيت العلوم الإنسانية والاجتماعية في العصر الحديث والفترة المعاصرة تخصيصا، باهتمام بالغ بحيث لم يعد تقدم العلوم الطبيعية قادرا على أن يشغل البحوث العلمية والدراسات الأكاديمية عنها، بل العكس كان تقدم هذه العلوم هو الزند الذي قدح في الأذهان فكرة الاستفادة منها بنقل تجربة هذه العلوم إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكان المنفذ الذي أتاح لها الإطلال على العلوم الطبيعية ذلك الإنجاز المذهل والعملاق الذي تحقق لعلوم اللغة أو اللسانيات في بداية القرن العشرين الميلادي على أيدي مجموعة من اللغويين يتقدمهم رائد اللسانيات الحديثة فرديناند دو سوسور (**Ferdinand de Saussure**)، وفي بيان أهمية الصلة التي أقامها تقدم العلوم اللسانية بين العلوم الإنسانية والطبيعيات، ترد عبارة كلود ليفي شتراوس (**Claude Lévi-Strauss**) الشهيرة التي يقول فيها:" روضت العلوم الإنسانية نفسها منذ قرون على النظر إلى العلوم الطبيعية على أنها نوع من الفردوس الذي لن يتاح لها دخوله أبدا، ولكن فجأة ظهر منفذ صغير انفتح بين هذين الحقلين، والفاتح لهذا المنفذ هو علم اللغة (الألسنية) "[1].

ولم يكن هذا من قبيل الصدف:" فقد لاحظ المختصون في هذه العلوم [العلوم الإنسانية] النجاح الباهر الذي كُللت به جهود زملائهم في (**Linguistics**)، بعد أن أعاد هؤلاء النظر في كل المعلومات والمناهج التي تركها لهم الباحثون السابقون، وما كانت في

الحقيقة إعادة نظر فحسب بل ثورة على المفاهيم والأساليب المسلمة التي ما كان يجرؤ أحد قديما على جدالها وإنزالها من مستوى التقديس الأعمى إلى مستوى النظر والتمحيص"[2]، أما ما استفادته الدراسات الأدبية تحديدا من تقدم الدرس اللساني فتجمله عبارة رولان بارت (Roland Barth) التي يقول فيها:" تستطيع الألسنية أن تعطي الأدب النموذج التوليدي، الذي هو المبدأ لكل العلوم، ذلك لأن القضية هي في الاستفادة من قواعد معينة لتفسير نتائج محددة "[3].

العلوم الإنسانية والاجتماعية وثورة المناهج: ما من شك في أن أهم ما أفادته العلوم الإنسانية والاجتماعية من العلوم الطبيعية هو الجانب المنهجي، فقد أثبتت اللسانيات أن اختلاف العلوم في موضوعاتها لا ينجم عنه –ضرورة– الاختلاف في المنهج، إذ استوعبت اللسانيات السوسيرية كل مقولات الروح العلمية واستمدت إجراءاتها الوضعية باقتدار، تلك المقولات التي من أبرزها: البنية (structure)، والآنية (synchronie)، والمحايثة (immanence). ولم تكن الاستفادة من المنهج بالأمر الهين إذا علمنا أن أوضح ما ميز القرن العشرين هو تلك الثورة الشاملة في المناهج الدراسية في مختلف العلوم والفنون، والتي يرى كثير من الدارسين أنها العلامة الفارقة بين هذا العصر والعصور السابقة: "...ذلك أن القرن العشرين تميز بأنه عصر التحليل في حقول الفكر والفلسفة، وعصر اجتراح المنهجيات للوصف والنظر في منظومة الأفكار المتداخلة "[4]، وهو ما يؤكده ستانلي هايمن(stanley Hayman) بقوله:"لا نستطيع أن نتملق أنفسنا فندعي أن تفوقنا في سعة باع نقادنا إذا قايسناهم بأسلافهم، كلا، بل من الواضح أن هذا التفوق في الأساليب والمناهج" [5].

و إذن أتاح التوسل بالمناهج العلمية للدراسات الإنسانية صفة العلم الذي يقوم أساسا على تحديد مجال دراسة يكون موضوع بحثه تحديدا واضحا، ثم على منهج يستحق أن يُسلك مع المناهج العلمية، التي جاء في تعريف لها في موسوعة ويكيبيديا(wikipedia) الحرة ما ترجمته: " نسمي مناهج علمية مجموع القنوات الموجهة لسير إنتاج المعرفة العلمية، سواء أملاحظات كانت، أم تجارب، أم استدلالات، أم تقديرات نظرية "[6]، وقد أخذت هذه العلوم بعدة مناهج في البحث منها:المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، والمنهج التجريبي ومنهج

تحليل المضمون، والمنهج الجدلي، والمنهج الاستدلالي، والمنهج المقارن.

أما موضوعها فهو محدد بالإنسان وما يتصل به بالنسبة إلى العلوم الإنسانية، وبالظاهرة الاجتماعية بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية كما يوضح موريس أنجرس: "والهدف من هذه الدراسات في مختلف فروع العلوم الإنسانية، هو معرفة وفهم الإنسان ومعنى أو دلالة أفعاله. تشتمل هذه العلوم التي كانت تسمى في السابق بعلوم الإنسان، ثم لاحقا بالعلوم الاجتماعية، خاصة في العالم الأنجلوسكسوني، على فروع عديدة تقوم بدراسة الإنسان من جوانب متعددة: ففي علم النفس مثلا، فإن التركيز يكون بصفة خاصة على الظواهر النفسية، أما في علم الاجتماع فإننا سنبحث خاصة عن تفسير الظواهر الاجتماعية، أما في التاريخ فإننا سنقوم بدراسة الأحداث والوقائع الماضية..."(7).

ومن أوضح المشاهد التي تجلى فيها هذا التميز الذي وسم عصرنا بعصر المناهج، مشهد الدراسات الأدبية التي زخرت بمناهج في النقد الأدبي لم يشهد ماضي تلك الدراسات مثيلا لها كمّا ولا نوعا، وكان الأمل الحادي للقائمين على تلك الدراسات السعي إلى تأسيس آليات تجعلها جديرة بتسمية البحث العلمي بكل ما تحمله تلك التسمية من دلالة موضوعية ومنهجية، بعد أن عاشت تلك الدراسات أحقابا تخضع فيها – في كثير من الأحيان – لأحكام انطباعية وفي أحسن الأحوال كانت تُستغل وسيلة لمعارف وعلوم أخرى ليس لها بالأدبية وثيق صلة.

من أجل ذلك ظهرت في ساحة النقد الأدبي مناهج حديثة تعلن صراحة أن هدفها الإجرائي الأول هو " علمنة الدراسة الأدبية "(8)، وكان على رأس الدعاة إلى هذا المنحى الشكلانيون الروس (Formalistes russes) الذين امتد نشاط مدرستهم من الفترة الممتدة من سنة 1915 إلى 1930م ولئن كانت هذه المدة قصيرة لقد كانت كافية لتتأثر بها مدارس أدبية لاحقة حملت عنها عبء مسيرتها المنهجية كالبنيوية والأسلوبية وغيرهما.

لقد آمن الشكلانيون أن إحدى أهم وظائف المنهج الذي يدعون إليه هي رسم الحدود والفصل بين التخصصات والقضاء على الافتئات والتداخل بين الحقول الدراسية، وهذا هو مضمون العبارة المأثورة عنهم والتي طالما رددوها قائلين:" لقد آن الأوان لدراسة

الأدب الذي ظل منذ أمد بعيد أرضا بدون مالك، أن ترسم الحدود لحقلها وتحدد بوضوح موضوع البحث "[9].

وهكذا أدى تماشج طروحات المنهج الشكلاني، وما أنجزه الدرس اللساني الحديث إلى ظهور كمّ من المناهج الدراسية في النقد الأدبي تختلف في التسمية وتلتقي في المنطلق والهدف غالبا، إذ تنطلق من النص ضاربة الذكر صفحا عما هو خارج أسواره، وهو ما دفع أكثر الدارسين إلى أن يطلقوا عليها تسمية " المناهج النصية أو النصانية " في مقابل المناهج الأخرى التي تحفل بالظروف المحيطة بميلاد النص المتعلقة بنفسية صاحبه وبيئته الزمانية والمكانية وخلفياته الاجتماعية، والتي جُمعت في تسمية "المناهج السياقية" قاصدين بها المناهج التي تضع النص الأدبي في أحد السياقات السابقة والتي تراها ضرورة لتفسير النص باعتباره استجابة مباشرة للمعطيات التي تفرضها تلك السياقات، وخلفية لا يمكن الوقوف على أسراره بعيدا منها.

وقد رأى بعض الباحثين أن تجميع المناهج النقدية في هذين القطبين مسألة ملحة للقضاء على فوضى التسميات التي طغت على الساحة النقدية في العقود الأخيرة، إذ وُضع إزاء كل تقنية أو نمط إجرائي في الدراسة الأدبية اسم خاص منظورا إليه على أنه منهج نقدي قائم بنفسه حتى لقد عد (حسين عبود حميد) هذه الأسماء فوصل بها إلى 65 (خمسة وستين اسما) !؟[10]، وهكذا يصبح الاتجاه السياقي قطبا جامعا لكل المناهج النقدية المعروفة باستخدام الظروف الخارجية إطارا مرجعيا لدراسة النص الأدبي، وباستقراء أثر البيئة الزمانية والمكانية والأحوال النفسية، بحيث يكون النص مرآة تنعكس عليها تلك المرجعيات، ووثيقة تاريخية شاهدة لما دار حول النص من متغيرات وأحوال، فيدخل فيها المنهج التاريخي، والاجتماعي، والنفسي، وما يتفرع منها، في حين يستقطب الاتجاه النصي المناهج التي تتغلغل في بنية النص نفسه غير ناظرة إلى ما حوله ومنها: المنهج الشكلاني، ومدرسة النقد الجديد، والمنهج البنيوي، والمناهج التي سميت بما بعد البنيوية...

المنهج التكاملي في النقد الأدبي: أسسه وموقعه: إذا كان من السهل على أولئك الدارسين تجميع المناهج النقدية في القطبين أو الاتجاهين السابقين بناء على معادلة: النص ↔

وما حول النص، فقد لا يكون من السهل تصنيف المنهج الذي سمي تقليديا بالمنهج التكاملي إضافة إلى أسماء أخرى مثل "المنهج المتكامل، أو التركيبي، أو المركب، أو المتعدد، أو المتكثر..."(11). وصعوبة تصنيفه هذه تظهر أول ما تظهر من تسميته نفسها والتي لا نبالغ إذا قلنا إنها تسمية على مسمى ذي دلالة متميعة، وهذا تناسبه عبارة الدكتور أحمد كمال زكي في حديثه عنه حين يقول –في صدر الفصل الذي عنوانه الاتجاه التكاملي من كتابه (النقد الأدبي الحديث أصوله ومناهجه)–:" لعل هذا المصطلح لا يخضع لأي تعريف فني واضح المعالم، فهو ليس نقدا تاريخيا ولا نقدا بلاغيا ضيقا، ولا نقدا نفسيا محدودا بما يدلي به أقطاب السكولوجية..."(12)

وإذا كان فرط الحماس للمنهج، ورنين الأسماء الداعية إليه شرطا كافيا لاكتساب مشروعية الوجود، فإن هذا المنهج لم يعدم هذا الشرط، فما أكثر النقاد النابهين الذين دعوا إليه شرقا وغربا، وما أشد ما كان تحمسهم له تحمسا دوغماتيا بلغ أقصى الحدود، وكان من رادة الدعاة إليه في الغرب ستانلي هايمن في كتابه (الرؤية المسلحة) الصادر سنة**1947**م.

أما في الأدب العربي فقد تزامنت الدعوة إليه مع دعوة هايمن في نهاية العشرية الأربعينية على أيدي رعيل من الأدباء والنقاد منهم سيد قطب في كتابه (النقد الأدبي أصوله ومناهجه)، حيث يقول – بعد تقسيمه المناهج النقدية إلى المنهج الفني، والمنهج التاريخي، والمنهج النفسي–:" ومن مجموعة هذه المناهج قد ينشأ لنا منهج أدبي كامل للنقد الأدبي، ندعوه "المنهج الكامل"(13)، والدكتور شكري فيصل في كتابه (مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي) والذي نعى فيه على المناهج التعددية محاولة التفرد بدراسة النص الأدبي مخَطِّئا إياها في هذا المسعى وداعيا إلى هذا المنهج الذي سماه المنهج التركيبي لأن:" واحدة من النظريات لا تستطيع أن تلف هذا الأدب كله [الأدب العربي] وتشتمل عليه ولذلك كان لابد من هذا المنهج التركيبي الذي يقوم على وصل نتائج الدراسات المختلفة"(14). إلى جانب الدكتور شوقي ضيف الذي يعبر عن هذه القناعة بقوله: "...وما نشك في أن من واجب الناقد الحديث أن يفيد من هذه الطرق جميعا في نقده، فإذا كان بصدد الحكم على أثر شعري لا بد أن يفهمه ويفسره أولا ثم يأخذ في تحليله مهتديا بأضواء المعرفة الحديثة وما كتبه النقاد

قبله سواء من قدروا الشعر تقديرا اجتماعيا أو جماليا أو نفسيا "[15]

هذا إذا كان ميزان تقويم المنهج كثرة الدعاة إليه، وشدة التحمس له، أما إذا كان المقياس هو صحة المرجعية الإبستمولوجية التي يصدر عنها، وصلابة الأسس النظرية التي يقوم عليها، وصلاحيته للتطبيق بما يكون إضافة مثمرة للدرس النقدي وإنارة النصوص، فعندئذ يكون للمنظرين وعلماء المناهج قول آخر في هذا المنهج، على أن لا يُفهم من هذا أن أنصاره قد قصّروا في الاحتجاج له وتبرير دعوتهم إليه مكتفين بالحماس والدعوة المجردة، بل لقد قدموا حججا كثيرة تتركز حول قدرة هذا المنهج على الإحاطة بجميع جوانب النص الشكلية والمضمونية، بما أنه يستفيد من جميع القواعد الإجرائية غير متقيد بآلية وحيدة شأن المناهج الأخرى التي تعجز عن ذلك – في زعمهم – بسبب أحادية الزاوية التي تتناول منها النص، والتي لا تتناسب مع تعقد الظاهرة الأدبية.

غير أن الظاهر أن هذه الحجج لم تكن في مستوى حماس أنصار هذا المنهج وقوة دعوتهم إليه، حسب خصومهم الذين ذهبوا في السخرية من هذه الدعوة إلى وصم هذا المنهج بتلك الأسماء الماكرة التي سبق ذكر طرف منها، في هجمة بلغت أشدها في قول الدكتور عبد المالك مرتاض:"...لم نرَ أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمناهج نقدية مختلفة في آن واحد، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق عمليا [...] ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا السلوك الفكري يشبه الشطحة البهلوانية التي لو طُبقت في مجال العمل لأمست ضحكة هزأة سخرة..."[16].

وإذا كانت حجة المدافعين عنه تتجمع في قدرته المزعومة على إضاءة كاملة للنص، فليس أسهلَ من الاعتراض على هذا بأنه ليس المطلوب من المنهج تحديد الإجابة النموذجية النهائية لكل الأسئلة التي يثيرها النص المدروس، بل عليه واجب التعمق في القضية التي خصها بالبحث والوصول إلى الهدف الذي رسم طريقه إليه، خصوصا أنه صار يُنظر إلى النص – حسبما انتهت إليه النظريات النقدية الحديثة – على أنه " مشروع دلالي وجمالي يكتمل بالقراءة النشطة التي تملأ ما في النص من فراغات "[17]، وهو ما يميل إليه الخطاب النقدي المعاصر، ويتماشى مع أحدث النظريات النقدية كنظرية نقد استجابة القارئ

الذي من الطبيعي أنه يركز في قراءته النصَّ على جوانب دون أخرى.

وإذا أدركنا أن المنهج أصلا هو الوسيلة التي تنظم البحث، وتسير به في خطوات محسوبة إلى غاياته المرسومة، وتمكن الباحث من القبض على كل الخيوط في يده، وتجعله في مأمن من أن يفلت منه شيء في تلك الرحلة المضنية، إذا علمنا هذا أمكن أن نعرف الخطورة التي تنجم عن محاولة تجميع آليات مختلفة وقد تكون متناقضة في منهج واحد بما يكون مظنة التشويش على الباحث الذي سيضطرب لا محالة، وقد يصل في النهاية إلى آراء متضاربة ينقض بعضها بعضا، ثم على القارئ الذي سيلقى حظه هو أيضا من هذا الاضطراب، فيخرج بأحكام غائمة متنافرة على النص الذي أراد دارسه أن يقربه إليه ويجلي له غوامضه.

بيد أن من المفيد الإقرار بالقدرة على الوصول إلى رأي وسط بين أنصار هذا المذهب وخصومه، يتمثل في إمكان إحداث تكامل إجرائي بين المناهج المتقاربة التي تصدر عن رؤية واحدة وتنتهي إلى أرومة مشتركة، كما ذهب إلى ذلك الدكتور يوسف وغليسي في قوله ": والرأي الوسط – فيما نرى– أن التعددية المنهجية في إطار الدراسة الواحدة، يمكن أن تفيد إذا كانت المناهج المستعان بها (والتي يُفترض أن يكمل بعضها بعضا) متفرعة عن جذر نظري موحد، كما هي الحال عند التركيب بين البنيوية والأسلوبية، أو بين السيميائية والتفكيكية (كما فعل الدكتور عبد المالك مرتاض) أو بينها جميعا (كما يفعل الناقد السعودي الدكتور عبد الله الغذامي)، على أساس أنها متفرعة عن جذر مشترك هو الألسنية، كما يمكن أن تفيد في حالة استخدام المناهج الإجرائية المساعدة ضمن المنهج المهيمن..."(18)

خاتمة

اتضح إذن أن المنهج التكاملي في النقد الأدبي –وربما في الحقول الدراسية الأخرى– منهج معروف له أنصاره ودعاته، ولهؤلاء حججهم ومبرراتهم في إصرارهم عليه، بصرف النظر عن مدى نجاحهم في تطبيقه، وهل هم يطبقون في الواقع منهجا واحدا مهيمنا بحيث لا تكون المناهج الأخرى إلا إجراءات جزئية مساعدة، على أساس أن تطبيقه في صورته النظرية مستحيلةٌ ممارسةً كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد المالك مرتاض في كلمته السابقة؟

ويبقى الرأي الناجع الأقرب إلى الواقعية من جهة، وإلى تضييق الهوة بين أنصار المنهج

التكاملي وخصومه من جهة أخرى، هو تلك الوسطية التي جنح إليها الدكتور يوسف وغليسي، المتمثلة في أن هذه النزعة التكاملية ممكنة التحقق بين المناهج ذات المنحى الرؤيوي والتنظيري المشترك، كما بين المناهج السياقية إذا أخذنا المنهجين التاريخي والاجتماعي نموذجا لهذا التكامل، لاشتراكهما في منطلق المادية الجدلية، أو كما بين البنيوية والأسلوبية من الاتجاه النصي لالتقائهما في المنبع اللساني، ولعل هذا أن يكون تأصيلا لهذا المنهج على المستوى النظري والإبستمولوجي، وترشيدا له على مستوى الممارسة.

أما السعي وراءه بالحماس المفرط، أو بحجة أن له تلك المقدرة الخارقة على وصل خيوط النص كلها، فقد رأينا أن ذلك ليس من الفروض المقدسة على المنهج، فضلا على استحالة حدوث ذلك تقريبا،

وإنما الواجب التعمق في النص من الزاوية التي تعني الباحث، وتحقيق الهدف أو الأهداف المتوخاة من الدراسة، وكثيرا ما لا تجتمع الإحاطة بالنص والتعمق في بعض جزئياته، بل الغالب أن يكون أحدهما على حساب الآخر، وإذ ذاك يصبح اختيار المنهج المتخصص الوحيد أو المهيمن على الأقل الوسيلة المناسبة للتعمق في بعض قيم النص في حين تُترك سائر القيم ، لدراسات أخرى تسلك مناهج مغايرة، وبذلك يحدث التكامل بين المناهج على مستوى الدراسات المستقلة للنص الواحد، بدل اجتماعها في الدراسة الواحدة للنص نفسه.

إن الباحث وهو يخوض طريقه إلى غايته، مثل من يسلك طريقا لا عهد له بسلوكها، فهو محتاج إلى ما يبرز له معالمها، ويوفر عليه الجهد في محاولة الوصول إلى نهايتها، ومن البديهة أن المسالك المؤدية إلى تلك النهاية تتفاضل في قدرتها على تحقيق هذه الغاية، وفي توفير الجهد وتقليل الكلفة والوقت، وهنا يقع عليه واجب اختيار مسلك واحد تتحقق فيه هذه المطالب، أما إذا جعل يضرب في كل الاتجاهات، يأخذ هذا الاتجاه ليرجع في حافرته عودا على بدء ليأخذ آخر، فهذا هو الضياع عينه والاعتساف الذي يكون معه الضلال.

الهوامش

(1) عبد الله مُحَّد الغذامي: الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م،ص6

(2) عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، 2006م، ص7

(3) عبد الله مُحَّد الغذامي: مرجع سابق، الموضع نفسه

(4) عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط2، 1966م، ص7

(5) ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر.إحسان عباس ومُحَّد يوسف نجم، بيروت 1958م، ج1،ص 12

(6) http://fr.wikipedia.org/wiki/M%C3%A9thode_scientifique

(7) موريس أنجر: منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تر. بوزيد صحراوي وآخرين، دار القصبة،06م، ص 58–59

(8) فيكتور إيرليخ: الشكلانية الروسية، تر. الولي مُحَّد، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء/بيروت ط1، 2000م

(9) المرجع السابق، ص7

(10) حسين عبود حميد: المناهج النقدية في نقد الشعر العراقي الحديث، بغداد، 1991م، ص16

(11)يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1428هـ–07م، ص34

(12) أحمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص153

(13) سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط8، 1428ه/03م، ص132.

(14) شكري فيصل: مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5 1982م، ص7–8

(15) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط6، د.ت، ص57

(16) عبد المالك مرتاض: ألف ليلة وليلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص10

(17) ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء/بيروت، ط3،2002م، ص321

(18) يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، 2002م، ص103